

ما بين مفهومي الحضارة والإمبراطورية

الإسلامية العربية عبر تاريخها كونها: حضارة إمبراطورية، نشأت من بوتقة عربية، وتطورت بسرعة إلى ظاهرة دينية وثقافية عالمية، وورثت وأعدت صياغة تراث الإمبراطوريات السابقة لتخلق نسجاً حضارياً فريداً ومتعدد الأوجه. فهي ليست مجرد إمبراطورية انقضت بزوال الدولة، لأنها استمرت كحضارة... وليست مجرد حضارة عرقية، لأن جوهرها ديني وثقافي يتجاوز العرقية.

المؤرخون لا يمنحون لقب «حضارة» لأي دولة غازية. فمثلاً، الغزوات المغولية كانت مدمرة ولم تنتج حضارة جديدة في العراق أو بلاد فارس، بل كانت مجرد سيطرة عسكرية، فلم يُمنح المغول لقب «الحضارة» رغم اتساع مساحة حكمهم وغزواتهم على مساحات من جنوب وغرب آسيا فترة من الزمن.

ومن هذا المنطلق الفلسفي التاريخي يمكن التمييز بين ثلاثة مفاهيم متداخلة، ولكنها مختلفة، في تصنيف الدول ما بين الإمبراطورية، والحضارة، وهي: الغزو العسكري، الاستمرارية الإدارية، والتأثير - التجديد الثقافي والحضاري، والتي تم تحديدها كنتائج مباشرة لنظريات كلاسيكية وأبحاث عميقة في علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وتحليل نظريات علماء الاجتماع.

المراجع:
1- إميل دوركايم، ومارسيل موس Between Sociology and Anthropology II | 12 | 'Civilizations: Elements'.
2- ماكس فايبر - مقال «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism)، ومقدمته التي تحمل عنوان (A Note on Civilizations and Economies. in SearchWorks articles).

sr@sameerarajab.net

الإمبراطورية لتصبح الخلافة الإسلامية، التي يُنظر إليها غالباً كاستمرار لتقاليد الإمبراطوريات السابقة في منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى، وليس كقطيعة معها. ورث الأمويون نمط الإدارة والمركزية والجيش من الحضارة البيزنطية، كما لم يرَ العباسيون أنفسهم رافضين للتراث القديم، بل خلفاء وورثة للحضارات التي سبقتهم، مثل الإمبراطورية الرومانية والتراث اليوناني. بنوا عاصمتهم بغداد لتكون مركزاً لإمبراطورية وثقافة امتزجت فيها هذه التقاليد القديمة مع الإسلام.

لذلك، غالباً ما يُشار إلى فترة الخلافتين الأموية والعباسية (خاصة من 750م إلى 945م) بأنها «العصر الكلاسيكي» للحضارة الإسلامية، حيث تشكلت مؤسساتها وقيمها الفكرية والروحية والأخلاقية في إطار دولة واحدة شاسعة وقوية.

المفهوم الثالث... «الإسلامية»

حضارة متعددة السياسات

(ما بعد الإمبراطورية)

مع تفكك الوحدة السياسية للخلافة العباسية وبروز دول وإمارات وسلالات حاكمة متعددة، تحولت الحضارة الإسلامية من كونها «إمبراطورية» موحدة إلى «نسيج حضاري» متعدد الأقطاب، وهو ما يؤكد طابعها كحضارة أوسع من أي دولة.

حتى بعد انهيار السلطة المركزية، استمرت الحضارة الإسلامية كإطار ثقافي وديني ولغوي موحد، وفي ظل التعددية السياسية ازدهرت الفنون والعلوم، وانتشرت من الأندلس إلى آسيا الوسطى... وأثبتت الحضارة الإسلامية قدرة كبيرة على استيعاب الشعوب المختلفة وتوفير إطار لحياتهم الدينية والثقافية، وظلت مفتوحة للتأثر من، والتأثير في، الحضارات المجاورة.

في المحصلة، يمكن وضع إطار التعريف الأنسب لوصف الحضارة

المفهوم الأول... «الإسلامية»

كنموذج حضاري لا عرقي

وهنا، لا بد من التمييز بين البعدين الأساسيين: العرقي (العربي) والديني (الإسلامي). وإن الحضارة الإسلامية لم تُعرّف نفسها قط كحضارة «عربية» بالمعنى العرقي الضيق، رغم أن اللغة العربية كانت وعاءها الأولي... لأن السمة الأكثر جوهرية فيها هي الدينية والثقافية، وهو ما يُفسر لماذا يُطلق عليها في الدراسات الحديثة اسم «الحضارة الإسلامية»، وليس «الإمبراطورية العربية».

منذ البداية، كانت الوحدة التي جمعت الشعوب تحت راية هذه الحضارة هي الدين الإسلامي، وليس الانتماء العرقي. نشأت الدولة العربية في البداية، لكنها تحولت بسرعة إلى مشروع حضاري واسع استوعب شعباً من خلفيات عرقية ولغوية متعددة (الفرس، الأتراك، البربر، وغيرهم). بعد قرن من الفتوحات، لم يعد من الممكن وصفها بأنها «عربية» فقط، لأن الإسلام تخطى الحدود القبلية والعرقية إلى الجواهر الديني والثقافي.

حدثت النقلة الجوهرية في القرن الثامن الميلادي، عندما استوعبت الدولة الإسلامية أعداداً كبيرة من غير العرب (الموالي)، مما أدى إلى كسر البنية العرقية للدولة وتحولها إلى مجتمع إسلامي متعدد الأعراق، مع بقاء اللغة العربية كلغة الدين والعلم والثقافة الموحدة.

المفهوم الثاني... «الإسلامية»

كإمبراطورية سياسية وامتداد

للحضارات السابقة

من الناحية السياسية والإدارية، كانت الحضارة الإسلامية في قرونها الأولى إمبراطورية، لكنها لم تقطع مع ماضيها، بل كانت واردة ومطورة له. في البداية، نشأت «إمبراطورية عربية» بفضل الفتوحات التي امتدت من الهند إلى إسبانيا في أقل من قرن؛ لكن من الناحية السياسية، سرعان ما تحولت هذه



○ بقلم:

سميرة بن رجب

دويلات المدن المستقلة، لكنها تشترك في نظام كتابة واحد، وتقويم، وفنون، ودين. نستخلص مما سبق إن الحضارة هي نسيج ثقافي واجتماعي واقتصادي متكامل، يحمل أبعاداً رمزية ومادية، ويستمر عبر الزمن ويتجاوز حدود الدول والإمبراطوريات... والإمبراطورية هي شكل سياسي محدد من أشكال التنظيم المنفرد، أو داخل إطار حضاري أوسع؛ على أن الحضارة أكثر امتداداً جغرافياً وانفتاحاً من الإمبراطوريات والدول.

الحضارة الإسلامية

(العربية)... وخصائصها

وهنا أعترف بأنني، من خلال هذا البحث المعرفي، لأول مرة أتعرّف على وصف للحضارة الإسلامية من خلال المفاهيم التي استخلصناها لمفاهيم وخصائص الفئتين من الدول؛ وتوصلت إلى أن وصف الحضارة الإسلامية العربية، عبر تاريخها، هو عبارة عن سؤال يقع في صلب الطريقة التي نفهم بها مفاهيم «الإمبراطورية» و«الحضارة»... والإجابة لا تقتصر على خيار واحد، بل تكمن في فهم هذه الحضارة كحالة فريدة تمتلك خصائص كلتا الفئتين، وتتطور بينهما عبر الزمن.

الإسكندر المقدوني، وتم تقسيمها إلى ممالك هلنستية (كالبطالمة في مصر والسلوقيين في الشام) التي كانت دولاً بيروقراطية مركزية.

الحضارة... العلوم والنسيج

الثقافي والاستمرارية

أما «الحضارة» فهو مصطلح أوسع وأعم، لا يشير فقط إلى الدولة، بل إلى كل ما أنتجه مجتمع معين عبر قرون أو آلاف السنين من لغة، دين، فن، عمارة، علوم، نظم كتابة، وعادات اجتماعية. قد تتكون الحضارة الواحدة من عدة دول وإمبراطوريات تعاقبت عليها، لكن الخيط الثقافي الموحد يبقى مستمراً. تستخدم التسمية غالباً لتلك المجتمعات التي لم تُشكّل دولة مركزية موحدة بالمعنى الإداري، أو التي تأسست كدويلات مدينة.

من أهم مميزات الدولة الحضارة هي الاستمرارية رغم الانقطاع السياسي؛ قد تسقط دولة «الإمبراطورية»، لكن دولة «الحضارة» تبقى وتؤثر فيمن بعدها... بالمفاهيم المتداولة في الفكر التاريخي والاجتماعي يمكن القول إن الحضارة هي النظام الرمزي والمادي (السيمائي) المتكامل الذي يستمر أكثر من قرن ويؤثر في جيرانه.

وأهم الأمثلة التطبيقية للحضارات هي 1- حضارة بلاد الرافدين: لم تكن دولة واحدة، بل تعاقبت عليها إمبراطوريات متعددة (أكديّة، بابليّة، آشورية، كلدانية)، لكنها تشترك في نفس الخلفية الثقافية، أي في الكتابة المسمارية، الأساطير السومرية، نظم الري، والقوانين. لذا يُطلق عليها «حضارة» لأنها أعم من أي دولة واحدة... 2- الحضارة الصينية: على الرغم من أنها قامت في الغالب كدولة موحدة (إمبراطوريات متعاقبة)، إلا أن المؤرخين يسمونها «حضارة» لأنها تمثل استمرارية ثقافية ولغوية وفكرية متصلة لأكثر من 3000 عام، تجاوزت أي أسرة حاكمة معيّنة... 3- حضارة المايا: لم تشكّل إمبراطورية موحدة، بل كانت مجموعة من

في محاولة للبحث عن معاني وتصنيفات الدول (قديماً وحديثاً)، توقفت كثيراً أمام تصنيف دول الإمبراطوريات، ودول الحضارات، وتحديد مفاهيمهما، وحصر نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما، والفروقات الجوهرية ذات الدلالات العميقة المميزة لكل منهما... حيث إن الفرق بين «الإمبراطورية» و«الحضارة» ليس اعتبارياً، بل يعكس اختلافاً في البنية السياسية، والتنظيم الإداري، وطبيعة التوسع، والاستمرارية التاريخية؛ ويعكس اختلافاً جوهرياً في العطاء وصناعة الأثر الذي تتوارثه الأجيال المتعاقبة علي المدى الطويلة والمستمرة... وهنا إيجاز لبعض من نتائج مطالعاتي على عدد من المقالات العلمية (مذكورة في نهاية المقال).

الإمبراطورية... الملك

والسيادة والسيطرة

يشير مصطلح الإمبراطورية إلى كيان سياسي موحد، له حدود واضحة (وإن كانت متغيرة)، وعاصمة، وجيش نظامي، وإدارة مركزية، وقوانين مكتوبة، وزعيم واحد (إمبراطور/شاه/ملك الملوك).

الإمبراطوريات هي دول بالمعنى السياسي الكامل للكلمة، وتقوم على فكرة السيطرة على أراض وشعوب متعددة، عن طريق الغزو العسكري المباشر؛ وتُنشئ أجهزة حكم (ولاة، ضرائب، طرق، جيش) لإدارة هذه الأراضي الممتدة.

وأبرز الأمثلة التطبيقية لمفهوم الإمبراطورية هي 1- الإمبراطورية الساسانية: دولة فارسية مركزية، لها عاصمة (قطيسفون، الاسم الفارسي لمنطقة المدائن العراقية)، وجيش نظامي، وديوان للضرائب، ودين رسمي للدولة (الزرادشتية)، وحدود سياسية واضحة مع روما والهند... 2- الإمبراطورية الرومانية: دولة متكاملة بقوانين (كالقانون الروماني)، ومواطنة، وجيوش فيالق، وسياسة توسعية واضحة... 3- الإمبراطورية الإغريقية: قامت على غزوات